

تفسير ابن كثير

ذكر السدي ومحمد بن إسحاق وغيرهما من المفسرين أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر أن يوسف عليه السلام لما باشر الوزارة بمصر ومضت السبع السنين المخصصة ثم تلتها السبع السنين المجدة وعم القحط بلاد مصر بكمالها ووصل إلى بلاد كنعان وهي التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده وحينئذ احتاط يوسف عليه السلام للناس في غلاتهم وجمعها أحسن جمع فحصل من ذلك مبلغ عظيم وهدايا متعددة هائلة وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات يمتارون لأنفسهم وعيالهم فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بغير في السنة وكان عليه السلام لا يشبع نفسه ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار حتى يتكفا الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين وكان رحمة من الله على أهل مصر .

وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم في السنة الأولى بالأموال وفي الثانية بالمتاع وفي الثالثة بكذا وفي الرابعة بكذا حتى باعهم بأنفسهم وأولادهم بعد ما تملك عليهم جميع ما يملكون ثم أعتقهم ورد عليهم أموالهم كلها الله أعلم بصحة ذلك وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب والغرض أنه كان في جملة من ورد للميرة إخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم في ذلك فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاما وركبوا عشرة نفر واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف عليه السلام وكان أحب ولده إليه بعد يوسف فلما دخلوا على يوسف وهو جالس في أبيته ورياسته وسيادته عرفهم حين نظر إليهم وهم له منكرون أي لا يعرفونه لأنهم فارقوه وهو صغير حدث وباعوه للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه فلماذا لم يعرفوه وأما هو فعرفهم فذكر السدي وغيره أنه شرع يخاطبهم فقال لهم كالمنكر عليهم : ما أقدمكم بلادي ؟ فقالوا : أيها العزيز إنا قدمنا للميرة قال : فلعلكم عيون ؟ قالوا : معاذ الله قال : فمن أين أنتم ؟ قالوا من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبي الله قال : وله أولاد غيركم ؟ قالوا : نعم كنا اثني عشر فذهب أصغرنا هلك في البرية وكان أحبنا إلى أبيه وبقي شقيقه فاحتبس أبوه ليتسلى به عنه فأمر بإزالة إكرامهم { ولما جهزهم بجهازهم } أي أوفى لهم كيلهم وحمل لهم أحمالهم قال : ائتوني بأخيكم هذا الذي ذكرت لأعلم صدقكم فيما ذكرت { ألا ترون أنني أوفى الكيل وأنا خير المنزلين } يرغبهم في الرجوع إليه ثم رهبهم فقال : { فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي } الآية أي إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية فليس لكم عندي ميرة { ولا تقربون * قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون } أي سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقى مجهودا لتعلم صدقنا

فيما قلناه وذكر السدي أنه أخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم وفي هذا نظر لأنه أحسن إليهم ورغبتهم كثيرا وهذا لحرصه على رجوعهم { وقال لفتياناه { أي غلماناه { اجعلوا بضاعتهم { أي التي قدموا بها ليمتاروا عوضا عنها { في رجالهم { أي في أمتعتهم من حيث لا يشعرون { لعلهم يرجعون { بها قيل : خشي يوسف عليه السلام أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها وقيل : تدمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضا عن الطعام وقيل أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم تخرجوا وتورعا لأنه يعلم ذلك منهم وإليه أعلم